رأي في الشعر العربي الحديث

بقلم محيي الدين اسماعيل

كان الشعر العربي بعد الحرب العالمية الثانية ، قد بلغ نقطة تاريخية فاصلة في حياته هي نقطةالحرج الحاسم، اذ كان عليه ان يؤكد نفسه من جديد فينتزع الجدارة بالحياة ، من خلال تأكيد أشكال جديدة ومضامين جديدة، يستطيع بها ان يؤمن مواجهته الجديدة للحياة ، بعد التطورات الجذرية الكبرى التي شهدها العالم ،والتي غيرت تغييرا عميقا وحاسما نظرة الانسان لكثير من القضايا الكبرى في حياته ومجتمعه وتاريخه ومصيره ، ورسمت انعكاسات عميقة على الحياة الفكرية والوجدانية لدى كثير من شعوب العالم .

بلغ الشعر العربي ، اذن ، نقطة الحرج التاريخي،بعد الحرب العالمية الثانية ، فلم يعد قادرا باشكاله ومضامينه التقليدية ، على تحقيق الاستجابات المستحدثة للحياة وتأمين تلك الخصائص التي يستطيع أن يواجه بها الواقع الموضوعي،وأن يستوعب الابعاد النفسية المتراجبة للانسان العربي الذي لم يعد يشرئب الى افاق الحياة الجديدة وحسب ، وانما بدأ يجعل من تطلعه المشرئب هذا قوة حافزة تدفع به نحو هاتيك الافاق .. كان على الشعر العربي الحديث ان يقطع الفجوة السحيقة القائمة ما بين اخر نقطة وقف عندها في نهاية الحرب العالمية الثانية ، وبين مقتضيات المسير والمصير العربيين .

كانت ابعاد الواقع الموضوعي وافاق النفس العربية قد تراحبت وازدادت عمقا واتساعا ، بحيث انبتت الصلة او كادت ما بين كثير من الاعمال الشعرية وروح العصر.. وبالتالي ، بين الاثر الشعري والنفس العربية .

هذه الحقيقة الحيوية العميقة الاثر ، نجد مثيلا لها في كثير من الآداب العالمية الكبرى . فلقد وجدنا مثيل هذه الحال ، بعد الحرب العالمية الاولى ، في اوربا عموما،حيث اهتزت هناك بعض القيم والمفاهيم ، وانهارت الاخرى، وساد السخط العميق جميع النفوس الخصبة ، فاشاعت الدعوة الى خلق ادب جديد يتجاوز « ادب الفضائح المنزلية » الذي غرق فيه الادب الاوربي بوجه عام ، في اواخر القرن التاسع عشر والعقد الاول من القرن العشرين. هذه الدعوة الجديدة الطالعة ، لابداع ادب جديد ، يعبر عن روح العصر بحيويته وقوة اندفاعه ونزوله لميدان المعركة والعمل على الارتفاع فوق موجة التدهور الحضاري التي اجتاحت الفكر الاوروبي يومذاك ، هي التي كتبت النصر لنفسها والهزيمة على الدعوات الاخرى .

ولقد كان من ثمار هذه الدعوة ، ادب لورنس وجويس وامثالهما في بريطانيا ، وادب بربوس ومونترلان وامثالهما في فرنسا ، والصيغ الشعرية الجديدة التي حققها اليوت واضرابه .

وما حدث بعد الحرب العالمية الاولى ، في اوربا،حدث فيها بعد الحرب العالمية الثانية ، مع الاختلاف في الصيغة والمستوى ، لا الاختلاف في الكيف والنوع ، اذ وجدنا الدعوات والمدارس والاتجاهات التي باشرت عملية تقليص ميدان الفكر المجرد لحساب ميدان الشعر والادب ، على وجه التعميم ، قد انطلقت في عمليتها هذه من تقدير واع بان التفلسف عملية انسانية حيال مادة انسانية لا غير.ومن حق الادب عموما ، ان يحتضنها ، بل ان يلغيها لحسابه ، باعتباره هو الاخر عملية انسانية حيال مادة انسانية. ولقد مثل هذه الدعوة اقوى تمثيل ادب الوجوديين بوجه عام.

اذن ، فالذي نرمي الى النص عليه هنا ، هو ان الاحداث الكبرى في حياة الامم والشعوب ، تقتضي بالضرورة،خلق دوافع جديدة لانماط جديدة من الجرأة الفكرية والروحية، تنتفض على القديم غير حافلة به ، وترفض الاستسلام للقيم والمفاهيم المضمحلة ، وتعمل على خلق شيء جديد.

وهذا ما حدث في الوطن العربي ، بعد الحرب العالمية الثانية !

لقد انتهت الحرب العالمية الثانية ، باحداثها الطاحنة وفواجعها الحاطمة ، بعد أن زلزلت كثيراً من المؤسسات والقيم والمفاهيم والمعايير ، وتركتها ركاما من الرماد ..مع رماد هيروشيما ونجازاكي ، واقامت بديلا عنها مؤسسات وقيما ومفاهيم ومعايير جديدة اخرى .

وقف الشاعر العربي المعاصر امام عالمه الجديد ، فرأى ان ابعاد الواقع الموضوعي قد اتضحت حدودها وصلة بعضها بالبعض الاخر ، كما لم تكن من قبل ، وتأكدت حياله بداهة وحدة الواقع العضوية وحدة لا انفصام لجزء منها عن الاجزاء الاخرى . فلقد استعلنت الوشائج الحية التي تربط ما بين القيم والمفاهيم الفكرية والاخلاقية والسياسية والاقتصادية وتماسك المؤسسات التي تقوم على اساس من هذه القيم والمفاهيم ، واستعلن ايضا التناقض التاريخي العميق بين نمطين من القيم والمفاهيم : النمط الطالع الصاعد ، والنمط الجانح لافول تاريخي محتوم .

لقد ادرك الشاعر العربي المعاصر امام هذه الحقائق الصادعة ، ان الشعر العربي ، بمفهومه القديم ، قد نزعت عنه مقومات البقاء ومبرراته ، فبدأت صفحته تنطوي، وما لبث أن اخذ يتخلى عن مجده المؤثل ، فشرعت قواه تنحسر عن المسرح ، لتتيح المجال رحبا امام حركات جديدة بانية في الشعر العربي المعاصر ، تختلف اختلافا كيفيا عن الشعر العربي الموروث ، تستطيع ان تواجه مقتضيات الحياة الجديدة وتطوراتها .

ولقد قامت هذه الحركات الجديدة في الشعر العربي المعاصر على محورين اساسيين ، أولهما : الاخذ بالتفعيلة بديلا عن الشطر ، والتحرر من قافية الشطرين ، وثانيهما، اخضاع الشعر لاراء ونظريات مسبقة والزامه بها .

هذان المحوران اللذان قامت عليهما حركة الشعر العربي الحديث ، قد اخرجا هذا الشعر عن محوره التقليدي الموروث ، حتى أننا لو حاولنا اليوم ان نعقد اية مقارنة او موازنة ، على اي مستوى من المستويات بين الشعر العربي الحديث والشعر العربي التقليدي ، لواجهنا تفاوتا نوعيا وجوهريا بين هذين النمطين من الشعر العربي .

هذا التفاوت النوعي والجوهري ، بين هذين النمطين من الشعر ، هو الذي اشاع ضربا من الذعر المشوب بالسخط احيانا وبالازدراء أخرى ، بين صفوف عدد من القراء والادباء ، بهذا الشعر الجديد .

ومن اجل ان نستقرىء عوامل هذا الذعر المشوب بالسخط حينا وبالازدراء حينا اخر ، ونضعه في موضعه الحقيقي ، ينبغي علينا الان ، ان نقوم هذه الحركة الشعرية الحديثة ، وان نتبين مدى صلاحها تاريخيا وواقعيا، بالقياس لحركة الفكر العربي المعاصر .

...

لقد رأى الشاعر العربي المعاصر في اشكال الشعر التراثي قيودا ، بقيت التجربة الشعرية العربية ترسف فيها عصورا متطاولة ، فافقدتها الكثير من اصالتها ، بل خنقت انفاسها في كثير من الاحيان . ورأى في هذه القيود تعارضا مع « روح الموسيقى » . ذلك المنبع الثر الذي تصدر عنه جميع مولدات الخلق الفني الحر . فكانت دعوته لتحطيم الشكل التراثي في الشعر ، بمثابة دعوة للعودة الى « روح الموسيقى » .

هكذا كانت ثورة الشاعر العربي المعاصر على شعره الموروث ، ثورة على الشكل .. ثورة على المضمون .. ثورة لها ما يبررها على مستوى التقويم الموسيقي .. ثورة تحاول ان تعصف بالسدود والقيود التي تنأى بالتجربة الشعرية عن منابع الخلق الفني .. عن روح الموسيقى .. ولكأنه بذلك يتنادى بصوت الشاعر الرمزي الكبير الكسندر باوك:

« الا ان الناقوس الضخم .. ناقوس مناهضة الانسانية ليقرع فوق الارض .. العالم يطهر نفسه ، خالعا اردیته القديمة .. الانسان يعود قريبا الى العنصر الكامن في الطبيعة .. الانسان يغدو اكثر موسيقية . »

ولعل الفارق الوحيد بين دعوة بلوك وامثاله من انصار « روح الموسيقى » في الشعر ، وبين الشاعر العربي المعاصر ، ان بلوك واضرابه يريدون ان يحل الفنان محل الاخلاقي ـ الانساني في الشعر ، بينما يدعو الشاعر العربي الحديث الى ان يكون الاخلاقي ـ الانساني فنانا ، او ان ينطوي الفنان عليه ، وذلك من اجل ان يحقق مهمته الجديدة في الشكل والمضمون .

على ان الشاعر العربي المعاصر الذي عمد الى تحطيم الشكل التراثي ، من خلال الاخذ بالتفعيلة بديلا عن الشطر، والذي حاول ان يضرم نيران الثورة في المضمون ، من خلال اتخاذ المواقف المسبقة ، انما كان يعمد الى ذلك لتحقيق وحدة العاطفة الصادرة عن التجربة الواحدة في نسيج حياتي واحد .. ومن اجل تجسيد همسات الفكر والوجدان في صور تحقق الانسجام والتوافق بين التجربة الذاتية والحقيقة الموضوعية ، او ان تلغي التناقض بينهما ، على الاقل ، ذلك التناقض الذي عاشه الشعر العربي طوال قرون عديدة .. ومن اجل تحقيق الالتزام بموقف ازاء الحياة ، بديلا عن العزلة او الاستقالة من الحياة .

هكذا كانت حركة الشعر العربي الحديث ، حركة اعادة الاعتبار للتجربة الانسانية ، حركة روح يافع ثائر جديد .

ولكن من حقنا الان ، وبعد أن اتخذت هذه الحركة صيغتها الواضحة ، منذ انطلاقها ، عقب الحرب العالمية الثانية ، ومنذ ان اكدت نفسها كحركة تمتلك مبررات التحدي للانماط والصيغ والاشكال الشعرية التراثية .. من حقنا ، بعد هذا كله ، ان نتساءل :

اي مدى استطاعت هذه الحركة ان تقطع ؟

بكلمة اخرى : ما هي المضامين والاشكال التي اغنت بها هذه الحركة البنية الفكرية والوجدانية العربية الحديثة؟

ان الاجابة عن هذا السؤال ، تقتضينا ان نقوم بعملية

قريبا

كامو والتمرد

بقلم
روبير دولوبيه

ترجمة الدكتور سهيل ادريس

طبعة جديدة من كتاب يدرس فلسفة العبث والتمرد عند احد كبار مفكري هذا العصر

منشورات دار الآداب

تقويم فورية لصميم مقومات هذه الحركة ، على ان نتناول هذه العملية بعيدا عن الصخب ، وان نتجنب في الوقت نفسه اتخاذ مواقف ردود الفعل التي لا بد وان تنتهي بنا الى التورط في بعض المزالق ، لدى مباشرة اعادة النظر في « صحيفة اعمال » هذه الحركة .

فورا ودون مقدمات ، نستطيع ان نزعم ، بان هذه الحركة عندما عمدت الى تهشيم الشكل العربي الموروث ، باعتباره « كأسا عتيقة لخمر رديء » ، ما كان بوسعها ان تميز تمييزا نابعا من حدس فني عميق ، بين الشكل الموروث في تقاليد الشعر العربي ، وبين الجوهر البلاستيكي المتحمي الدراماتيكي الذي تنطوي عليه اللغة العربية .

فلقد اختلط على هذه الحركة ، اختلاطا مؤسفا ، « الشكل الخارجي » و « علاقة » هذا الشكل بالتقاليد الادبية في اللغة العربية ، بـ «العنصر البلاستيكي» التشكيلي المستكن في اللغة العربية ذاتها ، من حيث هي لغة .. اي من حيث هي مادة اولية للخلق الفني .

فالشكل الفني قضية ترتبط بصميم الادب واجناسه .. ترتبط بمزاج الاديب ونمط تفكيره ومسلكة الفكري والوجداني ، خلال عملية الخلق . اما العنصر التشكيلي فقضية اخرى لا تتصل الا بطبيعة اللغة وخصائصها ومنطق الترابط بين الالفاظ وقوانين النظام الداخلي لهذه اللغة ، وامكانياتها على الايحاء والتوصيل .

اذن ، فهناك قضيتان متمايزتان تمايزا نوعيا ، حاسما ونهائيا ، ينبغي ادراكهما بمنتهى الوضوح والمسؤولية،هما: قضية الشكل الفني في الادب ، وقضية التشكيلة او البلاستيكية في اللغة . وهذه غير تلك ، ولا بأي وجه من الوجوه ، ولا صلة للواحدة بالاخرى ، الا كصلة مادة الرخام بتمثال داود لميكل انجلو !

على ان هذه الحقيقة البديهية التي تمس صميم عملية الخلق الفني ، لم تستطع الحركة الشعرية الحديثة عندنا ان تعيها وعيا كاملا ، وان تتصرف تصرفا مسؤولا حيالها. واكثر من ذلك ، لم تقم هذه الحركة باية محاولة لتعميق حسها التشكيلي في اللغة ، بل رفضت رفضا ساذجا لامسؤولا فهم الخصائص الملحمية والقوة الدراماتيكية التي تنطوي عليها العربية ، وذلك من خلال رفضها الساذج للاشكال العربية الموروثة .

كانت هذه الحركة قد انطلقت ، في البدء ، على ايدي عدد من الشعراء ، من ذوي الطاقات الشعرية اليانعة، من امثال بدر شاكر السياب ، ونازك الملائكة وخليل حاوي، ممن كانت لهم القدرة ، بحكم حسهم الليريكي وقوة حدسهم الشعري وتمكنهم من وعي الجوهر البلاستيكي وخصائصه في اللغة العربية ، على ان يحققوا طفرة كبيرة بالنسبة للشعر العربي ، على مستوى الشكل ومستوى المضمون ، مع المراعاة المسؤولة الواعية للنظام « التشكيلي » في اللغة.

بيد ان هذه الطفرة التي حققها هؤلاء الشعراء وامثالهم لدى مولد هذه الحركة ، قد اتجهت محصلتها ، بعد ذلك، وجهة افقدت هذه الحركة اهم مقوم من مقوماتها الجوهرية التي كانت تهدف الى التأكيد عليه في البدء ، ونعني به استخدام الطاقات البلاستيكية في اللغة العربية استخداما جديدا حيا يؤهل هذه الحركة ان تبدع اشكالا ومضامين شعرية ، تتخطى بها النقطة الحرجة التي وقف عندها الشعر العربي الموروث .

فنحن هنا ، اذ نعمد الى تقويم هذه الحركة ،انما نعمد الى تقويم محصلتها النهائية التي تفرض نفسها اليوم،وليس لنا ان نقحم في حديثنا تلك المحاولات المسؤولة الواعية التي بدأها شعراء الوتبة الشعرية الاولى . فالمحصلة النهائية التي نلحظها اليوم لهذه الحركة ، تختلف اختلافا نوعيا وجوهريا عن هاتيك المحاولات التي قام بها شعراء الانطلاقة الاولى .

كان السياب ونازك وحاوي وامثالهم من رواد هذه الانطلاقة ، قد بدأوا تمردهم الواعي المسؤول على الاشكال والمضامين الشعرية التراثية التي رأوا فيها تخلفا وعجزا عن استيعاب القوة البلاستيكية في اللغة العربية ، ورأوا في ت.س. اليوت وامثاله من الشعراء المجددين في العالم ، اصدق امثولة يمكن ان تحتذى بالقياس الى الشعر العربي الحديث .

ولقد كان من بداهات الامور ، ان تكون هذه الحركة الشعرية الحديثة ، اساسا تتنامى عليه اعمال الخلق الشعري الجديد ، لكي تغدو هذه الحركة حركة تاريخية تقف حيال مسؤولياتها ازاء الفكر العربي الحضاري الجديد .. حركة تستطيع ان تتأصل وتبقى . ولكننا وجدنا ان هذه الحركة قد بدأت تتخطى تخطيا لامسؤولا الموقف الايجابي العميق الذي اتخذه روادها الاول . فلقد خيل للعدد العديد من الشعراء الذين انضووا تحت راية هذه الحركة ، ان الهدف من وراء هذه الحركة الجديدة ، هو تحطيم الشكل لحساب مضامين وصور شعرية جديدة، ومن هنا كان موقف هؤلاء الشعراء هو التنكر العنيد « للشكل » و « التشكيل » على حد سواء ! بينما كانت الدعوة الشعرية الحديثة ، على يد روادها الاول ، هي تحطيم « الشكل » التراثي ، لحساب استيعاب مخصب جديد « للترابط التشكيلي » البلاستيكي في اللغة ، ذلك الترابط الذي فقد وشائجه الحية على يد التراثيين التقليديين .

وبهذا ، يمكننا القول ، بان هذه الحركة الشعرية الحديثة ، كما سجلت خط اتجاهها محصلتها النهائية ، لم تعد حركة تطور صاعد للشعر العربي ، بل غدت ظاهرة مرضية ، انبتت الصلة ما بينها وبين التراث العربي ، بما يعنيه هذا التراث من صلة تاريخية حية ومن استخدام اصيل لمقومات اللغة ، حتى ليمكن القول بان هذه الحركة قد ارتضت ، وبفخر أجوف ، ان تنتزع نفسها من قوى

الجذب التاريخي ، كما ارتضت أن تصطنع صلات ووشائج تربطها بحركات غريبة عن الروح العربية والعبقرية الحضارية العربية ، حتى غدا اسلاف شعراء هذه الحركة اسلافا مزيفين يقعون خارج تخوم تاريخنا وخارج أطارنا الحضاري ، وليسوا هم الاسلاف الحقيقيين في تاريخنا العربي .

لقد ضحت هذه الحركة الشعرية بالعنصر الدرامي الجليل لحساب الصور السريعة الخاطفة . فالاشكال التي صاغها شعراء هذه الحركة الذين يربو عددهم على عدد الاحزان والهموم ، لم تكن جديرة باستيعاب الصور الانسانية الجليلة ، بل اعتمدت الاثارة عن طريق تسجيل الصور السريعة العابرة التي خيل اليهم انها هي التعبير الاصدق عن الحياة بحركتها السريعة وصورها المتعاقبة ، ولم يعوا ان الفن في نسقه الاعلى هو التعامل مع الابديات، ولكن من خلال روح العصر – كما يقول بودلير – .

قبل عدة سنوات ، كنت قد اعتزمت تسجيل رأي في شعر صديقي الاستاذ السياب ، فاعدت قراءة معظم شعره يومذاك ، ثم انتهيت الى ان وصفت شعره بانه شعر « موفيتوني » اي الشريط السينمائي الناطق .

كان ذلك منذ عدة سنوات ، وكان الحديث عن شاعر كبير كالسياب ، فكيف ينبغي ان يكون الحديث عن هذه الكثرة الكاثرة كالاحزان والهموم من شعرائنا الحديثين اليوم ؟

فليس ثمة من ريب ان هذا الضرب من الشعر قد غدا خروجا لامسؤولا عن خط التطور الطبيعي الذي اراد ان ينطلق فيه رواده الاول من امثال الملائكة والسياب وحاوي، وان هذا الخروج لا بد من وقفه بعمليات خلق شعري ، لا يحفل بالسرعة التصويرية الناطقة بقدر ما يحفل بالحقائق الجليلة الراسخة التي تستوعبها اشكال جديدة منابعها الاصيلة هذه البلاستيكية الرائعة الخصبة في اللغة العربية ، والا فسيظل هذا العدد العديد من شعراء هذه الحركة يقفون على مستوى واحد وفي طبقة واحدة ، اذ لا معايير تميز الاصيل من الزائف ، ولا موازين تعرفنا على من خفت موازينه او من ثقلت موازينه ، فالكل منبوذ في العراء وهو كظيم !!

دخل اخيرا احد هواة الفن أحد معارض الفن الحديث وتأمل رسومه ، ثم سأله احد الواقفين بالقرب منه عن رأيه في هذا الفن ، فقال :

لا أدري بالضبط ، ولكن الشيء الوحيد الذي انا واثق منه ، أن هذا الفن قد اتاح الفرصة للجميع !

وهكذا ايضا اتاحت هذه الحركة الشعوبية الحديثة عندنا الفرصة للجميع ان يكونوا شعراء في مستوى واحد وطبقة واحدة وبجواز سفر واحد للدخول الى وادي عبقر!

محيي الدين اسماعيل

صدر حديثا في

سلسلة القصص العالمية

الحلقة الاولى

قصص سارتر

في كتاب واحد يضم : الجدار ، الغرفة ، ايروستراتس – صميمية – صداقة عجيبة

نقلها عن الفرنسية

الدكتور سهيل ادريس

الثمن ٣٥٠ ق.ل

والحلقة الثانية

قصص كامو

في كتاب واحد يضم : الغريب – الزوجة الخائنة – الجاحد – اليكم – الضيف – جوناس – الحجر الذي ينبت

ترجمة

عايدة مطرجي ادريس

الثمن ٤ ليرات لبنانية

منشورات دار الآداب